MINISTÈRE DE L'ÉDUCATION NATIONALE, DE L'ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR ET DE LA RECHERCHE

ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 40 (2006), p. 139-153

Šarqī Al-Rizqī

المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط.

Al-muqarnasāt al-ḥammādiyya wa wighāt intišārihā al-muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724710922 *Athribis X* Sandra Lippert
9782724710939 *Bagawat* Gérard Roquet, Victor Ghica
9782724710960 *Le décret de Saïs* Anne-Sophie von Bomhard
9782724710915 *Tebtynis VII* Nikos Litinas
9782724711257 *Médecine et environnement dans l'Alexandrie médiévale* Jean-Charles Ducène
9782724711295 *Guide de l'Égypte prédynastique* Béatrix Midant-Reynes, Yann Tristant
9782724711363 *Bulletin archéologique des Écoles françaises à l'étranger (BAEFE)*
9782724710885 *Musiciens, fêtes et piété populaire* Christophe Vendries

© Institut français d'archéologie orientale - Le Caire

شرقى الرزقى

المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغرَبى من البحر الأبيض المتوسّط

تتباين آراء وأحكام دارسى العمارة الإسلامية وفنونها الزّخرفية بشأن المقرنسات الحمّادية فى بلاد المغرب الإسلامى خلال القرنين ٥-٦ هـ / ١١-١٢م، تباينًا واضحًا إلى حدّ التناقض الصّارخ. فمنهم من فنّد حقيقة وجود المقرنسات الحمّادية، تفنيدًا قاطعًا شأن الباحث العراقى ياسر الطّباع[١]. ومنهم من آثر التّريث، وعدم التّسرّع فى إبداء الأحكام القاطعة، وتفضيل الاكتفاء بتصريحات عامّة، مفتوحة على كلّ احتمال وارد مستقبلا كالفرنسى ميشيل إيكوشار، الذى يقول بالحرف الواحد: «قد نجد فى قصور القلعة الحمّادية عيّنات مهمّة، إلاّ أنّ ضحالة نشرها حالت دون دراستها»[٢]. ومنهم من كان له إطّلاع حسن بخفايا العمارة الحمّادية بشمال إفريقيا، فأقرّ وجود عنصر المقرنسات بمدينة القلعة (شكل ١) من غير أن يُوثّق موقفه بأدلّة دامغة، مُكتفيا فى ذلك بما يوحى به حسّه الشّخصى، مثل اللّواء الفرنسى ليون دو بيلى[٣]، والباحث اللاّمع جورج مارسيه[٤]، وهنرى تيراس[٥]، والباحث الإسبانى فيرنونداز پويرتاس[٦].

ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، شأن الباحث الفرنسى، المُتوفى فى الآونة الأخيرة لوسيان جولڤان، الذى بذل قصار جهده فى سبيل استقطاب اهتمام جمهور المختصّين فى مجال المقرنسات الإسلامية صوب مكتشفاته الأثرية

١ T. Yesser, « The Muqarnas Dome ; its Origin and Meaning », *Muqarnas* 5, E.J. Brill Leiden, 1985, p. 61-74.

٢ M. Écochard, *Filiation de monuments grecs, byzantins et islamiques. Question de géométrie*, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1977, p. 61.

٣ L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad : une capitale berbère dans l'Afrique du Nord au XIe siècle*, Leroux, Paris, 1909, p. 39.

٤ G. Marçais, *L'architecture musulmane d'Occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et la Sicile du IXe au XIIe siècle)*, Arts et métiers graphiques, Paris, 1954, p. 103.

٥ H. Terrasse, *La mosquée Al Qarawiyyin à Fès*, Éditions Klincksieck, Paris, 1968, p. 32.

٦ A. Fernandez Puertas, « Mukarnas », *EI*² VII, 1993, p. 500 -501.

حول مفهوم مصطلح «المقرنسات»، ومعالجة أبرز إشكالاته التّاريخية، واللّغوية، والوظيفية، أنظر الفصل التّمهيدى من رسالة الباحث: «تطوّر المقرنسات فى عمارة المغرب الإسلامى خلال القرنين ٥-٧ هـ/ ١١-١٣م»، رسالة ماچستير (غير منشورة)، مُعدَّة تحت إشراف الأستاذ الدّكتور محمد عبد العزيز لعرج، والدّكتور عقّاب محمد الطّيب، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠م.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

الرّائدة بخرائب القلعة الحمّادية (شكل ٢) خلال الفترة الممتدّة بين سنتى ١٩٤٩-١٩٦٢م[٧]؛ ومؤرّخ الفنّ الإسلامى الكبير أولج جرابار الذى اعتبر من جهته أنّ القلعة الحمّادية لا تنطوى على بقايا المقرنسات فحسب، وإنّما تتعدّاه إلى تبوّئها مرتبة المركز الجهوي، المقابل لمركز شرق إيران بمشرق الخلافة الإسلامية فى مجال ابتكار المقرنسات، والعمل على ترويجها بالمناطق المحاذية لها فى بلاد الغرب الإسلامى، وجنوب القارّة الأوروبية على وجه الخصوص[٨].

ومن ثم يتبادر للأذهان إثارة الأسئلة الآتية: لماذا كلّ هذا التّجاذب فى الرّأى حول حقيقة المقرنسات الحمّادية؟! كيف غاب أمرها على مؤرّخى المقرنسات الإسلامية فى أعمالهم المَسْحية الشّاملة لمختلف أنحاء أراضى الخلافة، شأن أعمال الألمانيان چين روزنتال[٩]، وإيدموند پوتى[١٠]، والفرنسى هوت كور[١١]، والإنجليزى جونتان بلوم[١٢]، والعراقى حيدر كامل[١٣]، والألمانية إيفون دولد سومبلينيوس[١٤] على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر؟ أين مكان حفظ بقايا المقرنسات الحمّادية اليوم بغرض الإطّلاع عليها مُجدّدا، وفحصها عن قُرب، وفضّ الخلاف بتأكيد الأمر، أو نفيه بشكل مُطلق؟ وإذا ما سلّمنا جدلا بثبوت وجود المقرنسات فى المبانى الحمّادية، فهل من السّهل التّسليم بلعبها دور المركز الجهوى على الصّعيد الإقليمى فى مجال ابتكار وترويج المقرنسات بمنطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط بأسره، وهى المدينة العسكرية المنيعة، المستندة إلى جبل شاهق على ارتفاع ألف وأربعمائة متر عن معدل سطح البحر؟! ماذا لو كان هذا الرّأى الأخير صائبًا فى مزاعم طرحه، فهل من تداعيات لمراجعة ما تقدّم تقريره إلى حدّ الآن بخصوص المقرنسات الإسلامية؟

١. تنبيهات هامّة حول المقرنسات الحمّادية وبيان مواضع التقاطها وأماكن حفظها

قبل الشّروع فى تقديم، وتجميع، ومناقشة أبرز البقايا الأثرية، المتوفرة اليوم حول المقرنسات الحمّادية، والمحفوظة حاليًا بكلّ من متحف سِرْتَا بقسنطينة (شكل ١١)، ومتحف سطيف (شكل ٥) الوطنيين، ومن المفروض متحف الآثار

٧ L. Golvin, «Note sur quelques fragments de plâtre trouvés récemment à la Qal'a de Banû Hammad», *Mélange d'histoire et d'archéologie d'occident musulman (Hommage à Georges Marçais)* 2, Imprimerie du gouvernement général, Alger, 1957, p. 75-93; *id.*, «Fouille archéologique à la Qal'â de Beni Hammad», *Bulletin de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, Éditions Klinckseick, Paris, 1963, p. 392; *id.*, «Les plafonds à Muqarnas de la Qal'â des Banû Hammad et leur influence possible sur l'art de la Sicile à la période normande», *Romm* 17, 1974, p. 63-69.

٨ O. Grabar, *The Alhambra*, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 1978, p. 175.

٩ J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites dans l'architecture orientale*, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.

١٠ E. Pauty, «Contribution à l'étude des stalactites», *BIFAO* 29, 1929, p. 129-153.

١١ L. Hautecœur, «De la trompe aux mukarnas», *La gazette des beaux arts* 6, p. 27-51.

١٢ M. Jonathan Bloom, «The Introduction of the Muqarnas in Egypt», *Muqarnas* 5, 1985, p. 21-28.

١٣ كامل حيدر، الخصائص التّخطيطية للمقرنصات، سلسلة العمارة العربية الإسلامية، دار الفكر اللّبنانى، الطّبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٤ شرقى الرزقى، «فصل حساب سطح المقرنس للرّياضى الإيرانى جمشيد غياث الدّين الكاشى (دراسة وتحقيق)»، محاضرة أُلقيت فى أشغال الملتقى المغاربى الثّالث للمخطوط، المنعقد بالجزائر العاصمة أيام ٢٦-٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥ (تحت الطّبع).

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

القديمة بالجزائر العاصمة أيضًا (شكل ٦)[١٥]. وكذا جملة الصّور التّى خلّفها مُكتشفها لوسيان جولڤان فى مؤلّفاته المتعدّدة (الأشكال ٧ – ١٠)، يجدر بنا المقام، التّنبيه إلى ثلاث ملاحظات فى منتهى الأهمّية:

أوّلاً: أنّ هذا المجهود من البحث، والتّقصىّ العلمى، ما يزال جُزئيًا فى نتائجه، بيد أنّ قصر النَّجْم، أو الكوكب (شكل ٢) ما يزال بِكرًا، ولم تطله أشغال الحفر الأثرى بعد. وهو الشّىء نفسه يقال على العاصمة الإدارية الحمّادية الأولى مدينة أشِير بعين بوسيف (شكل ١)، والتّى سكنها الحمّاديون قبل أن يبتنوا مدينة القلعة، مدّة ثلاث وعشرين سنة، وتحديدًا خلال الفترة الممتدّة بين ٣٦٥–٣٩٨هـ/ ٩٨٤–١٠٠٧م على وجه التّقريب[١٦]. والتّى قد تُحدث لنا مفاجأةً سارَّةً حول هذا الموضوع فى غضون الحفريات المستقبلية بها[١٧]. خِلافًا لمدينة بجاية ثالث عاصمة للحمّاديين (شكل ١)، والتّى – وإن كانت لم تُحفر بعد – إلاَّ أنَّها تبقى بعيدة، ومتأخِّرة زَمَانيًا عن الجدل العلمى القائم حاليا حول تاريخ، ومكان ظهور المقرنسات الإسلامية بصفة عامّة، والقبّة المقرنسة منها بصفة خاصّة.

ثانيًا: انّ هذه العيّنات الواردة فى هذه الدّراسة، يُرجّح فرضية عدم الإطّلاع عليها من قِبل مؤرِّخى المقرنسات فى العالم؛ وأنّ كلّ ما تمَّ الإطّلاع عليه بالنّسبة لهم فى أحسن الظّروف هو نموذج الشّكل ٥ والشّكل ٦ حيث تفضّل الباحث چورچ مارسيه بنشرهما فى بعض أعماله الهامّة حول الآثار الإسلامية بشمال إفريقيا[١٨]. وكذا نموذج الشّكل ٧ الذى تفضّل تلميذه لوسيان جولڤان بنشره فى كتابه القَيِّم حول نتائج حفرياته الأولى والثّانية بقلعة بنى حمّاد[١٩].

إذْ كرّر هذا الباحث ما نشره أستاذه من قبل بخصوص المقرنسات الحمّادية، إضافة إلى عرضه تلك القطعة الهامّة من جملة بقايا المقرنسات التّى التقطها عام ١٩٥٦م من أنقاض قصر السّلام (شكل ٣ والأشكال ٧–١٠). وقد أعانه مارسيه على تصوُّر مَوْضِعِها الصّحيح فى نسيج المقرنسات الذى كانت تنتمى إليه هذه الأخيرة (شكل ٧ ب)، بِنَاءً على مقارنتها المُوفَّقة بين هذه الأخيرة، وبين مقرنسات الحِنْيات الرُّكنية بكنيسة بلاتين النُّورماندية (شّكل ٧ ج)، الواقعة بعاصمة جزيرة صقلّية، مدينة پَالِرْم.

ومن ثم أصبحت هذه العيّنات الثّلاث، الشّاهد الوحيد، الدّال على استخدام المقرنسات فى تنميق مبانى القلعة الحمّادية على حدّ اعتقاد جمهور مؤرخى المقرنسات بصفة خاصّة، ومؤرخى الفنون المعمارية الإسلامية بصفة عامّة؛ فجاءت أحكامهم بشأنها شديدة التّباين، كما سلفت الإشارة.

[١٥] أقصد أنّ هذا المتحف، كان يحفظ العينة الحجرية الوحيدة (شكل ٦)، التّى تمَّ العثور عليها من طرف اللّواء دو بيلى، ومساعده الباحث مارسيه فى حفريتها المقامة عام ١٩٠٨م، إلاَّ أنّ شَغْلى منصب «محافظ للتّراث الأثرى، والمتحفى، والتّاريخى» بذات المتحف، مكلّف بجرد، وتثمّين المجموعات الإسلامية، لم يسمح لى بالعثور على هذه العيّنة. وهو ما يوحى إلى احتمال تحويلها إلى متحف جرينوبل، مسقط رأس اللّواء دو بيلى الذى حوَّل معه غداة استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م كلّ التّحف المهمّة التّى عثر عليها بالقلعة، وهى الآن محفوظة إمّا بمتحف الفنون الزّخرفية بباريس، أو بمتحف جرينوبل السّابق. أو احتمال ضياعها بطريقة ما من المتحف. ولذلك فإنّ دراستها، ستكون مرتكزة على الصّور التّى التقطها لها دو بيلى غداة اكتشافها عام ١٩٠٨م، وكذا التّفريغ الذى خصّها به مارسيه.

[١٦] شرقى الرزقى، «تطوّر المقرنسات»، ص ٨٠.

[١٧] الواقع أنّ هذا الموقع الأثرى عرف تنظيم حفرية أثرية مُشتركة بين الوكالة الوطنية لحماية الآثار، والمتحف الوطنى للآثار القديمة، ومركز البحث فى عصور ما قبل التّاريخ مع مستهلّ عقد تسعينات القرن العشرين، إلاّ أنّ الأقدار لم تكتب لها أن تتواصل بسبب الأزمة السّياسية النّاجمة عن توقّيف المسار الانتخابى عام ١٩٩١م، ودخول البلاد فى حُمَّى العنف السّياسى، حيث تعرضت تجهيزات الحفر الأثرى هناك فى بحر عام ١٩٩٣م إلى عمل إجرامى، أدّى إلى حرق عتاد الحفر، ومعسكر الإقامة، وإتلاف الكثير من البقايا الأثرية التّى كانت مخزّنة فى مستودع المعسكر؛ ومنذ ذلك الحين عُلِّقت الحفرية إلى يومنا هذا.

[١٨] G. Marçais, *Poteries et faïences de la Qal'â des Beni Hammad au XIe siècle*, D. Abraham, Constantine, 1913, p. 39-40.

[١٩] L. Golvin, *Recherches archéologiques à la Qal'a des Banû Hammad*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1965, p. 124-125.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ثالثًا: إنّ جميع هذه العيّنات قد تمّ نشر صورها من طرف الباحث جولڤان عبر مؤلّفاته العديدة. فإلى جانب تَحدُّثه عن العينتين اللّتين التقطهما دو بيلى عام ١٩٠٨م (شكلا ٥ و٦) فى كتابه «أبحاث أثرية فى قلعة بنى حمّاد»، نجده قد تحدّث وعرض صور مقرنسات قصر السّلام (الأشكال ٧-١٠) كاملة فى مقال قَيِّم بعنوان «عرض لبعض القطع الجصّية الملتقطة حديثًا من قلعة بنى حمّاد»، الذى نشره سنة ١٩٥٧م[٢٠]. وفى ذات السّنة أعاد نشر بعضها فى كتابه «المغرب الأوسط خلال العهد الزّيرى»[٢١]؛ قبل أن يُعَاوَد الحديث عنها مرَّة ثالثَ فى مُداخلةٍ، ألقاها سنة ١٩٦٢م، حول نتائج حفريّاته الأثرية الأخيرة بالقلعة. إلاَّ أنّه فى هذه المرّة لم ينشر لها أيّة صورة، أو تفريغ[٢٢]. كما نجده قد تحدث وعرض صور مقرنسات قصر المنار (شكل ٤ وشكل ١١) فى مقال خاصّ تحت عنوان جذاب: «السّقوف المقرنسة فى قلعة بنى حمّاد وتأثيرها المحتمل على الفنّ الصّقلّى خلال العهد النّورماندى»[٢٣] قبل أن يُعيد مراجعة بعض آرائه وأحكامه السّابقة فى كتابه الأخير: «المغرب خلال القرون الوسطى»، والذى اشترك فى تأليفه مع نخبة من العلماء[٢٤]. ولعل الأرجح فى كلّ هذا، أنّ جميع مؤلّفاته هذه لم تقع فى أيدى مؤرّخى المقرنسات وقت صدورها على ما يبدو، إذا ما استثنينا مَرْجعه الأخير، الذى لم يورد فيه صورا ذات أهمّية لهذه المقرنسات وهو ما يفسّره بوضوح غياب المقرنسات الحمّادية فى مؤلّفات مؤرّخى المقرنسات الإسلامية قديمًا وحديثًا.

٢. عرض لأبرز عيّنات المقرنسات الحمّادية

النموذج الأوّل: ويُعرف هذا النّوع من المقرنسات لدى أهل الفنّ المعمارى بـ «الدّليات المتوازية السّطوح» (parallélépipèdes) (شكل ٥). قوامها قِطع فخارية مستطيلة الشّكل، مُزدانة بأخاديد جانبية مثلّثة الشّكل (شكل ٥ب)، إضافة إلى تجويف نصف كروى صغير، يشغل مركز قاعها السّفلي، المتدلى فى فضاء المبنى (شكل ٥ج). حيث نجدها مُجمَّعة فى هيئة هرم مُدرّج مقلوب الرأس نحو الأسفل (شكل ٥أ)، وهو مُكوَّن من أربعة مستويات متطابقة، أعلاها مكون من أربع قطع متجاورة، ثمّ تليه طبقة المستوى الثّانى فى اتجاه الأسفل دائما بثلاث قطع، فالمستوى الثّالث بقطعتين، ثمّ المستوى الأخير بقطعة واحدة. عِلمًا أنّ تَوَضُّعات هذه القطع مع بعضها البعض يكون بانحصار مُنتظم، مِقداره نصف طول القطعة المستطيلة رأسيًا، ونصف عرضها أفقيًا. شُغل مظهرها الخارجي، المُنسدل فى فضاء المبنى باللّون البنّى ذى اللّمعان الباهت، وباقى قسمها المولج بين الجدران، وبين بعضها البعض من غير طلاء (شكل ٥ ب). أى بشكله الطّبيعى (اللّون الأحمر القرميدى).

كما لا يفوتنا فى هذا المقام التّذكير بأنّ أبعاد هذه القِطع المتشابهة متساوٍ، حيث طول الواحدة منها ١٧٤ ملم، وعرضها ٤٥ ملم، ممّا يوحى للدّارس أنّ طريقة تشكّيل هذه الأخيرة، قد كانت بالقولبة على مستويات متقدّمة (ورشة)، وليس التّشكّيل اليدوى كما قد يتبادر إلى ذهن البعض. فيما يُقدّر عرض الأخدود الزّخرفى الذى يشقّها بـ١٨ ملم (شكل ٥ب)،

٢٠ L. Golvin, «Note sur quelques fragments»

٢١ L. Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides. Recherches d'archéologie et d'histoire*, Arts et métiers graphiques, Paris, 1957, p. 203.

٢٢ L. Golvin, «Fouille archéologique à la Qal'â de Beni Hammad».

٢٣ L. Golvin, «Les plafonds à Muqarnas».

٢٤ L. Golvin *et al.*, *Le Maghreb médiéval*, Edi-sud, Aix-en-Provence, 1991, p. 264.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

وقطر قَعْر قاعدتها الظّاهرة من الأسفل فى هيئة رؤوس أربعة سِهام متّحدة رأسيًا، نتيجة وصول حدود الأخاديد الجانبية إليها بنحو ٢٠ ملم (شكل ٥ج). أمّا مادّة لصق هذه القطع ببعضها بعضًا فهى مونة الجصّ المحلّية، سِمة عمائر المناطق السّهبية، والصّحراوية الحارّة، شأن القلعة وغيرها إذ تمَّ العثور عليها بأعدادٍ هائلةٍ من طرف اللّواء دو بيلى سنة ١٩٠٨م بقصر الأمراء (شكل ٢ وشكل ٥) فى بادئ الأمر، قبل أن يتوَالى العثور عليها فى بقيّة المبانى القَلْعِيَة الأخرى بكمّيات وافرة فى غضون الأبحاث الأثرية اللاّحقة، المقامة من قبل جولڤان والباحث الجزائرى بورويبة رشيد عام ١٩٦٨م.

وإذا كان الباحث چورچ مارسيه يرى بأنّها كانت تُشكِّل، إمّا أشرطةً زُخرفيةً مستمرّة، أو متقطّعة على مستوى النّهاية العلوية للْجُدران من الدّاخل ومن الخارج على حدّ سواء؛ وأنّ زخارف مماثلة لها قد عُرفت بكنيسة حَلَبِية، الواقعة على احديْ ضفّتيْ نهر الفرات؛ وأخرى بتيجان جامع مدينة إصفهان الإيرانية[٢٥]. فإنّ الدّارس لا يُشاطره الرّأى كلّه بالنّظر إلى حجمها، وطبيعة المواد الأوّلية المّتخذة منها، ودون الأخذ بعين الاعتبار الفارق الزّمنى بين هذه المعالم المذكورة. ويُرجّح بشأنها فرضية استخدامها فى تنميق الواجهات الدّاخلية للمبانى المفتوحة على أفنية مركزية، ولعلّ ما يُدعم صِحّة هذا الافتراض هو العثور على بقايا أنواع أُخرى من المقرنسات أكثر جمالاً، وأقلّ خشونة من هذه الأخيرة، أضف إلى ذلك الطّبيعة العسكرية لمدينة القلعة، مما يجعلها بلا ريب مُهملة التّنميق من الخارج فى مقابل الحرس على تحصّينها المنيع.

أمّا عن مسألة تأريخها، فيمكن إعادتها إلى السّنوات الأولى من بناء مدينة القلعة من غير تَحَرُّج لاعتبارين أساسيين: أوّلهما كون القصر الذى وُجدت به هو أقدم قصور قلعة بنى حمّاد. والذى قد يُعزى تأسيسه إلى مؤسّس الدّولة حمّاد بن بلكين على حدّ روايات الكتب التّاريخية، والجغرافية، والأدبية، المتحدّثة عن القلعة. وثانيهما بساطة هذه المقرنسات من كلّ النّواحِى الفنّية والزّخرفية، مقارنة مع بقية النّماذج الأخرى. وهى بذلك تُعتبر أقدم وأبسط نموذج عرفه الحمّاديون فى مجال التّنميق بعنصر المقرنسات فى عمارتهم القلعية.

النموذج الثّانى: وتمثّله عيّنة وحيدة، منقورة فى الحجر الصّلب (شكل ٦)[٢٦]. قِوامها كتلة حجرية (monolythe) نصف كروية الشّكل، أبعادها ١٠٠ × ٦٠ سم[٢٧]. مُزْدانة البطن بثلاثة صفوف متطابقة من التّجاويف الهندسية، المنحوتة على هيئة «خَلية النّحل»؛ حيث تمَّ العثور عليها من طرف اللّواء دو بيلى أيضا فى السّفح الشّرقي، الذى يُطِلُّ منه قصر المنار على وادى فرج السّحيق. وقد اعتبرها الباحث چورچ مارسيه، منذ ساعة اكتشافها، كأقدم أنموذج للمقرنسات فى بلاد المغرب الإسلامى على الإطلاق، حيث يقول بشأنها ما نصُّه بالحرف الواحد: «تُشكِّل الكتلة الحجرية المنحوتة على هيئة «خلية نحل»، أقدم نموذج للمقرنسات المغربية ...، ومن الإنصاف الاعتراف بذلك»[٢٨]. كما قال فى مناسبة سابقة: «وجود عيّنات تُذكِّرنا بخلايا النّحل فى العمارة الحمّادية، مصدر استلهام المقرنسات، لهو دليل كاف على وجود هذه الأخيرة، بل هو تأكِيد لها»[٢٩]. وهو فعلاً ما أكّدته أبحاث جولڤان لاحقًا.

[٢٥] G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 103.

[٢٦] وهى العيّنة التّى سبقت الإشارة إلى اختفائها من «المتحف الوطنى للآثار القديمة» بالجزائر العاصمة، ولم يعد لدينا من حولها دليل، سِوى الصّورة الفوتوغرافية الرّديئة التّى التقطها لها اللّواء دو بيلى غداة اكتشافها عام ١٩٠٨م، وكذا التّفريغ الذى خصّها به مارسيه.

[٢٧] L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad*, p. 39. *id.*, «Une capitale berbère au XIe siècle», *JournAs* 12, 1909, p. 198.

[٢٨] G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 102.

[٢٩] G. Marçais, *Poteries et faïences*, p. 12.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

وإذا كنّا لا نعرف تاريخ هذه العيّنة على وجه الدّقة، فإنّ مكان العثور عليها بسفح قصر المنار، وكذا طبيعة شكلها الكروى، يؤكّدان أنّها قُبَيْبة مقرنسة؛ كما يُحمِّلانَا من جانب آخر على الاعتقاد بأنّها أحدث زمنا من مقرنسات قصر الأمراء، ومقرنسات قصر السّلام، التّى سيأتى الحديث عنها بعد قليل بالنّظر إلى الظّهور المتأخّر لهذا النّوع من المقرنسات فى تنميق مبانى العمارة الإسلامية، حيث يبدو للعيان الوسط السّورى-التّركى أخصب بقعة له إبّان القرن السّابع الهجرى، الموافق للثّالث عشر الميلادى[٣٠]. وبما أنّ هذا القصر قد عَرف تعديلات أيّام المنصور بن علناس آخر الأمراء الحمّاديين المقيمين فى مدينة القلعة، والذى أقام فيه على وجه الدّقة، والتّحديد فى الفترة الممتدّة بين ٤٨١-٤٨٣هـ/ ١٠٨٨-١٠٩٠م، قبل أن ينتقل إلى مدينة بجاية، ثالث وآخر العواصم الحمّادية؛ فإنّنا نرجّح فرضية نحتها فى غضون هذه التّعديلات، والتّرميمات الأخيرة المُدخلة على قصر المنار.

ولكن مما هو جدير بالذكر فى هذا المقام إنه حتّى وإن كانت هذه العيّنة ذات القيمة الأثرية البالغة فى ذيل ترتّيب التّسلسل الزّمنى للمقرنسات الحمّادية، فإنّها فى واقع الأمر لا ينقص من أهميتها التّاريخية شىء. طالما أن جميع نماذج المقرنسات الحجرية سِمة المعالم السّورية والتّركية، تؤرّخ ما بين القرنين١٣ و١٤م. والأهمّ من كلّ ذلك، أنّها تكتسى مكانة خاصّة فيما يتعلّق بتاريخ القبّة الحجرية المقرنسة ببلاد المغرب، فهى على الأقلّ أقدم نموذج لها بالمنطقة، إن لم نقل النموذج الوحيد المعروف لدينا حتّى الآن.

النموذج الثّالث: بقايا المقرنسات المذنَّبة (الأشكال ٧ – ١٠)[٣١]. التّى تسبق تاريخيا جميع القِباب المقرنسة الواقعة فى المعالم الأثرية بالعراق[٣٢]، والشّام، وتركيا ومصر، وكافّة منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط طبعًا. ولا يسبقها فى ذلك غير المعالم الإيرانية، والرّوسية[٣٣]. قوامها قطع جصّية متجانسة تقنيًا، ومتنوّعة شكلاً، تبعًا لتنوُّع المكان الذى كانت تشغله فى تركيبة أجزاء القبّة المقرنسة. فضلاً عن خُلوِّها من أيّة زخرفة إضافية تشغل سطوحها الخارجية على خِلاف عيّنتَا النموذج التالى، كما سيأتى التّفصيل لاحقًا عبر القطع الأربع المُنتقاة لها فى هذا المقام من جملة قِطعها المُلتقطة شهر يونيو عام ١٩٥٦م من وسط إحدى قاعات قصر السّلام (شكل ٣).

القطعة الأولى: وهى عبارة عن كتلة جصّية ضخمة (شكل ٧)، منحرفة الشّكل تقريبًا، حيث يُقدَّر طولها الإجمالى بـ٢٦ سم، وارتفاعها بنحو ١٨ سم، مشغولة البدن، الذى يُقدّر عرضه بـ١٨ سم هو الآخر بحنية صغيرة برميلية الشّكل، يتوّجها عقد نصف دائري، والتّى تقدّر أبعادها بـ ١٥ × ١٠ سم، وعلى جانبيْها، يقع فى كلّ واحد منهما، تدريج قائم الزّاوية، أبعاده ٤٠ × ٤٠ ملم. إذ يمتدّان رأسيا على حسب امتداد الحنية الآنفة الذكر، ويستندان فى الأسفل إلى قاعدة ربع دائرية الشّكل؛ ومنهما يتفرّع منبت حنيتين متناظرتين تمامًا على ما يبدو.

٣٠ حول مقرنسات سوريا وتاريخها أنظر:
M. Écochard, *Filiation de monuments grecs*, p. 65-110.
أمّا عن مقرنسات تركيا فأنظر:
J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites*; *id.*, *L'origine des stalactites de l'architecture orientale*, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1938.
A.Ô. Dekan, *Osmali ôncesianad olu tûrk mimarisinde mukarashi portal ortuleri*, Istanbul, 1974.

٣١ وعَينات هذا النموذج فى غاية الأهمّية الأثرية، ولاسيما فى ما يتعلّق بالدّراسات المستقبلية حول نشأة وتطوّر القبّة المقرنسة فى العمارة الإسلامية على وجه الخصّوص.

٣٢ حول تاريخ القباب المقرنسة بالعراق، أنظر: الحدثى عطاء وهناء عبد الخالق، القِباب المخروطية فى العراق، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامّة، بغداد، ١٩٧٤م.

٣٣ شرقى الرزقى، «تطوّر المقرنسات»، ص ٤٦-٥٠.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025

ففى الوقت الذى نجد فيه التّدريج الأيمن منهما مسحوبا رأسيا على مستوى منبته، وتفرُّعه من جانب الحنية المركزية نتيجة الأضرار الجسيمة التّى لَحقت به جرّاء كسر اعتراه على هذا المستوى، نجد التّدريج الأيسر المقابل له فى الجهة الموازية، مُزوَّدًا بِمَنْبت حنية صغيرة على نمط الحنية المركزية الآنفة الذكر، عمقها ٢٠ ملم؛ إلاّ أنّ ارتفاعها غير تامّ بفعل الكسر المحورى الذى لحق بها على مَقْربة من مفتاح العقد النّصف الدّائرى، المتوِّج لها. وهو ارتفاع لن يكون أطول، ولا أقصر من ارتفاع الحنية المركزية من دون شكّ، باعتبارهما متجاورين أفقيا فى ذات الطَّبَقَة.

وهذا كفيل فى واقع الأمر بإعطاء تّصوُّرًا سَليمًا لهيئة البيت المقابل له فى الجهة اليمنى من البيت المركزى الآنف الذكر والذى سيكون، بكلِّ تأكيد، مماثلا له فى أدقّ التّفاصيل. وقد وُفِّقَ الباحث مارسيه إلى حدٍّ بعيدٍ فى إعادة تَخَيُّل شكله، وتصميمه العام (شكل٧ ب). حيث يُرجَّح وظيفة شَغْله الصّدر الأعلى من حِنية رُكنية على حدّ ما اسفرت عليه أوجه المقاربة بينه وبين مقرنسات الحنيات الرُّكنية بكنيسة بلاتين النّورماندية (شكل ٧ ج) بمدينة پالرم الصّقلّية.

القطعة الثّانية: وهى عبارة عن كُتلة يُقدّر ارتفاعها بـ ٢٦ سم (شكل ٨)، قوامها كما تبدو من منظور جانبى (شكل ٨ أ – ب)، عَصَب مركزى بارز، حيث يَقدّر عرضه بـ ٥ سم، وعمقه نحو الدّاخل بـ ٤ سم. وهو يمتدّ رأسيًا من الأسفل إلى الأعلى، كما ينتهى بانحناء خفيف نحو الخارج على هيئة كابولي. وقد تمكّن الباحث جولڤان من تصوّر هيئته الكاملة (شكل ٨ ج – د)، فضلاً عن تحدّيد وظيفته بالمجمّع الزّخرفي، المنتمى إليه عن طريق المقارنة بينه وبين أشكال مقرنسات كنيسة بلاتين المذكورة أعلاه؛ إذ بيّنت هذه المقاربة الموفّقة من لدنه على شغل الرّكن الأيسر فى الطّبْقة الثّانية نحو الأسفل من موضع القطعة الأولى فى هذا النموذج (شكل ٨ هـ).

القطعة الثّالثة: قوامها كتلة جصّية ضخمة (شكل ٩)، تتخلّلها حِنْية مركزية نصف كروية الشّكل. إذ يُقدّر عرضها بـ ١٠ سم، وعمقها بـ ١٥ سم. يُؤَطِّرها على الجانبين بَسْطة مُدرّجة فى هيئة درج–كتف (شكل ٩أ). أى بانفراج زاوية مفتوحة مقدارها قائمة ونصف ١٣٥°، كما تبلغ مسافة المحور الذى يربط بين نهايتيْ هاتين البَسْطتين الجانبيتين ١٨ سم، مُشكِّلة بذلك نموذج مُصغَّر لنمط المحاريب المغربية المتعدّدة الأضلاع. وهو ما يؤكِّد بوضوح على أنّ العيّنة مُجرّد ربع كتلة من قطعة مُثمَّنة الأضلاع. حيث كلّ ربع يقابل، ويماثل بقية الأرباع الأخرى فى كلّ شيء، كما يوضّحه اجتهاد الباحث جولڤان (شكل ٩ ب)، والذى يبدو من خلاله أنّ هذه القطعة قد كانت تُشكّل مثمّنًا قطره ٣٧ سم، مشغولا بأربع حِنيات جانبية متماثلة تمامًا، تتناوب بانتظام مع أربعة مساطب مدرّجة، وهو بكلِّ تأكِّيد شكل القطعة، المعروفة لدى الحرفيّين المغاربة بـالقبَّعة، أو الشّاشية حسب تعبيرهم العامّى فى الصّناعات الخشبية للمقرنسات، وهى القطعة التّى تُتوّج نسيج القبّة المقرنسة، أو الطّاسة على حدّ تعبير أهل حرفة الجصّ بالمغرب الأقصى فى أيّامنا هذه.

القطعة الرّابعة: قوامها قطعة مشطورة إلى نصفين أفقيًا (شكل ١٠ أ)، حيث تُقدّر أبعادها التّامة عقب عملية التّجميع (شكل ١٠ ب) كالآتى: ٣٠ سم فيما يخصّ الارتفاع، و١٢ × ١٢ سم فيما يتعلّق بقاعدتها العليا، و٤ × ٤ سم فيما يخصّ القاعدة السّفلى. إذ تبدو لنا فى هيئة هرم مقلوب مقطوع النّهاية المدبّبة. منسدل من الأعلى فى اتجاه الأسفل بانحصار طفيف منتظم عبر فضاء شاغر إلى أن يقف به المقام عند تشكّيل حِلْمة صغيرة مربّعة الشّكل، أبعاد أضلاعها كما أسلفنا

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

٤ سم. وعلى أحد جوانب هذه القطعة تلتصق زائدة مُضافة تربطها ببقية النّسيج المقرنس، والتّى من المؤكّد أنّها كانت تشغل فيه دور متوازيات السّطوح المتدلِّية على النّمط المُبين فى (شكل ١٠ ج).

إنّ تأريخ قطع هذه العيّنة الثّمينة لأنموذج القبّة المقرنسة المُبكّرة فى العمارة الإسلامية، جدير بأن نُعيده إلى المرحلة الثّانية من عمر الدّولة الحمّادية؛ أى مرحلة الاستقرار السّياسي، وبداية التّعمير الحضارى، والانبعاث الاقتصادي، والازدهار الثّقافى بمدينة القلعة، تلك المرحلة التّى يمكن ضبطها على وجه التّقريب بالفترة الممتدّة بين ٤٤٧-٤٨١ هـ / ١٠٥٥-١٠٨٨م. أو بالأحرى أيّام الأمير النّاصر بن علناس ٤٥٤ - ٤٨١هـ/ ١٠٦٢ - ١٠٨٨م، خامس الأمراء الحمّاديّين، وآخر من أقام هناك بصورة متواصلة من جملة الأمراء التّسعة، المتعاقبين على عرش هذه الدّولة. والذى لم يكتف بما شيّده من مآثر حضارية بالقلعة، كقصر السّلام هذا فحسب، وإنّما تعدّاه إلى بناء معالم مدينة بجاية التّى أسْماها بـ النّاصرية، كعاصمة جديدة له ولخَلَفه[٣٤].

وبهذا نكون قد أعدْنا مراجعة ذلك التّأريخ، الذى افترضه جولڤان بنهاية القرن الثّانى عشر الميلادى، وبالضّبط أيام الأمير المنصور بن علناس ٤٨١-٤٩٨هـ/ ١٠٨٨-١١٠٧م [٣٥]. دون أن يَأخُذ فى حسبانه تلك الفروق التّقنية الشّاسعة، الفاصلة بين عيّنات المقرنسات الحمّادية، واختلاف مواضع التقاطها من خرائب القلعة. وهو ما يوحى للعيان بأنّها غير مُتعاصرة إطلاقا.

وعليه فإنّ التّأريخ الذى تقدم به جولڤان، هو تأرّيخ جزئي، لا ينطبق إلاَّ على مقرنسات قصر المنار الجصّية (النموذج التالى) باعتبار أنّ قِطع هذا الأخير هى أجمل وأتقن عيّنات المقرنسات الحمّادية على الإطلاق؛ أضف إلى ذلك التقاطها من أَحْدث، وأفخم قصر بمدينة القلعة. وهو ما يُؤكِّد بلا ريب تأخُّرها الزّمنى عن العيّنات السّالفة الذكر.

النموذج الرّابع: وقوامه قطعتين كثيرتَا الشّبه بقطع النموذج الثّالث (شكل ٧)، إلاَّ أنّ هذه الأخيرة (شكل ١١) أكثر من سابقتها اتقانا، وتفنُّنًا من حيث التّصمّيم العام، وحذاقة الرّسوم المائية التّى تشغل بطونها، وقد تمّ التقاطها عام ١٩٦٢م بالقرب من المدخل الرّئيسى المفضى إلى قصر المنار من الجهة الجنوبية (شكل ٤). وهما الآن معروضتان بمتحف سرتا بمدينة قسنطينة (شكل ١) فى إحدى واجهات قاعة قلعة بنى حمّاد. حيث يقدّر ارتفاع القطعة التّامة منهما (شكل ١١أ) بـ ٣٠ سم، وعمقها الموغل فى الجدران، مُتذبذبًا بين ١٤,٥ سم على مستوى قاعدة البيت، و١٨,٥ سم على مستوى القمّة. إذ تبدو هذه الكتلة الجصّية فى هيئة شبه منحرف، منتصب رأسيا على قاعدة منتظمة الاستواء، يتخلّلها بيتًا مركزيًا، برميلى الشّكل، ارتفاعه (٣٠) سم، وعرضه (١٥,٢) سم، لكن أبرز ما يميّز شكل هذه القطعة عن أشكال عينات النموذج الثّالث هو الزّاوية القائمة (٩٠°) المُشكّلة على مستوى قمّة هذا البيت، أى مفتاح العقد.

أمّا بخصوص زخرفتها فنجدها نباتية خالصة. قوامها لوزة بسيطة تشغل القسم السّفلى من بطْن ذلك البيت، بداخلها زهرة محوّرة على هيئة كِزانة صنوبر، ويعل هذه اللّوزة السّفلية بدن مِغْزلى الشّكل من أغصان النّبات، تتفرّع من جهتيْه الخارجيتين وُريْقات صغيرة مُكوّرة ليُشكّلَ هذا المجمع الزّخرفى فى نهاية المطاف ما يشبه شكل المزهرية المنكّسة على فوهتها.

[٣٤] ابن الخطيب (لسان الدّين)، أعمّال الأعلام، الجزء الثّالث، تحقّيق وتعلّيق، أحمد مختار العبّادى، ومحمّد إبراهيم الكتانى، نشر دار الكتاب، الدّار البيضاء، المغرب الأقصى، ١٩٦٤م، ص ٩٧.

[٣٥] L. Golvin *et al.*, *Le Maghreb médiéval*, p. 264.
L. Golvin, «Note sur quelques fragments», p. 93.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025

هذا فيما يخصّ عناصر الموضوع الزّخرفى. أمّا فيما يتعلّق بالألوان الموظّفة فيه، فنجد ثلاثة أصباغ رئيسية: أوّلها اللّون الأبيض النّاصع المُتخذ كخلفية لتنفيذ الرّسم. وهو بذلك يشغل كامل سطح القطعة بالإضافة إلى تلوين بِتِلاَت الزّهرة التّى تتوسّط اللّوزة. واللّون البنّى الدّاكن لطلاء بدن المزهرية بقسميْها العلوى والسّفلي؛ وأخيرا اللّون الأزرق الكُوبلتى المّستخدم فى تنفيذ الخطوط العامّة لأشكال عناصر موضوع الرّسم.

وأمّا بخصوص القطعة الثّانية من هذا النموذج (شكل ١١ ب)، فهى غير مُكْتملة، والرّاجح أنّها كانت تشكِّل الرّبع الأيسر العلوى من بيت مُماثل لشكل البيت السّابق. لاسيما وأنّ هذه القطعة مزدانة بأشكال زخرفية مطابقة لسابقتها، وبذات الألوان المذكورة آنفًا. وهو ما لا يدع أدنى شكّ فى انتماء هاتين القطعتين إلى هيكل مقرنس واحد. والذى نُرجح بشأنه فرضية الحنية الرّكنية لثلاث اعتبارات رئيسية: أوّلها اِلتقاط هذه القطع من إحدى الزّوايا الدّاخلية، الموالية للمدخل الرّئيسي؛ ثانيها قِلّة عددها مُقارنة بعدد القطع الملتقطة من وسط قاعة قصر السّلام. ثالثها وهو بقاء آثار الحنْيات الرّكنية لقبو متقاطع الأضلاع، طول أضلاع رقبته ٢,٢٠م كان يُتوّج هذا المدخل البارز نحو الخارج، سِمة مداخل العمارة المغربية فى ذلك الوقت. حيث تبدو بقايا تخطّيط المقرنسات التّى كانت تشغل إحدى حنياته الرّكنية الأربع على ارتفاع من الأرض، مِقداره أربعة أمتار على حدّ شهادة الباحث جولڤان[٣٦].

وهكذا، ومن خلال استعراض مختلف نماذج عيّنات المقرنسات الحمّادية الملتقطة من خرائب القلعة، يتَّضح جليًا بأنّ جميع أنواع المقرنسات الإسلامية قد جُرِّبت، واستخدمت فى مبانِ القلعة بنجاحٍ، وعبر مراحل زمنية متتالية، وليست متعاصرة. وهو ما يفنِّد، تفنِيدًا قاطعًا فرضية المَقْدم المباشر للمقرنسات من بلاد العراق، مَهْد ميلادها الأوّل[٣٧] إلى القلعة عن طريق استقدام فنّان، أو ورشة حِرفية متخصّصة من هناك لتزيين قصور الحمّاديين بالقلعة، باعتبار أنّ هذا العنصر لا نجده وقتها، لا فى بلاد الشّام، ولا فى مصر ولا ليبيا، ولا تونس. بقدر ما هو دليل دامغ على أنّ مدينة القلعة كانت فعلاً مركز إشعاع لإنتاج المقرنسات، وترويج تقنياتها نحو مختلف مناطق الغرب الإسلامى، كما سنحاول تبيان ذلك بشيء من التّفصيل.

٣. اتجاهات تعمّيم المقرنسات الحمّادية فى المنطقة

تعمّم استخدام المقرنسات عبر مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتوسع مجال زخرفتها إلى شمل فضاء واسع من أجزاء العمارة الإسلامية خلال القرن ٦هـ/ ١٢م. وبَدَا فى هذه المرحلة التّاريخية الهامّة الشّرق الإيرانى بالمشرق، والقلعة الحمّادية بالمغرب الأوسط كمركزين متناظرين إقليميًا، حيث شاع من كلّ واحد منهما شبكة إقليمية مُستقلّة بذاتها الفنّية والتّقنية عن بعضهما البعض، إذا ما استثنينا جزيرة صقلّية على العهد النّورماندى التى استطاعت المزج بين ثقافة المركزين فى انسجام محكم، رغم التّباين الواضح بين تركيبة المقرنسات المغربية، ونظّيرتها المشرقية.

[٣٦] L. Golvin, «Les plafonds», p. 64-65.

[٣٧] كامل حيدر، الخصائص التخطيطية.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

إذ يرجع الفضل فى نقل وتوزيع هذا العنصر الزّخرفى بمنطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة القلعة الحمّادية[٣٨]؛ حيث اتخذ منها هذا التّأثير الفنّى اتجاهين متعامدين تقريبًا. أوّلهما فى الاتجاه الشّمالى الشّرقي، مُستهدفًا بذلك جزيرة صقلّية الإيطالية بصفة خاصّة، وقد كان ذلك فى المرحلة الثّانية من مراحل تطوّر الدّولة الحمّادية (٤٤١-٤٨١هـ/ ١٠٥٥-١٠٨٨م) حيث كان لهذه الدّولة هناك سُمْعة طيّبة بكامل المنطقة؛ وعلى مختلف الأصعدة: السّياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثّقافية بما فيها مختلف الضُّروب الفنّية. الشّيء الذى جعل منها قوّة محلّية مُكتملة الجوانب، جديرة بالاحتذاء والاقتداء[٣٩].

فعادت إذن محلّ ثقة لبقية جيرانها على ضفتى المتوسط، وتحفيزهم على الدّخول معها فى علاقات متينة فى مختلف مجالات الحياة، كما يستشفّ ذلك بوضوح من العلاقات الشّخصية الوطيدة التّى كانت تربط بعض الأمراء الحمّاديّين ببعض البابوات فى إيطاليا، وفى مقدمتهم البابا جريجوار السّابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) الذى كانت تربطه علاقات صداقة وطيدة مع الأمير الحمّادى النّاصر بن علناس، ناهيك عن بقية رجال السّياسة، والاقتصاد، كما يدلّ على ذلك نصوص ووثائق تاريخية كثيرة معاصرة للحدث، أو قريبةً منه زمانيًا[٤٠].

أضف إلى ذلك بقية التّأثيرات المعمارية الحمّادية المدنية، والدّينية الأخرى على نظيرتها النّورماندية بجزيرة صقلّية خلال القرن (٦هـ/ ١٢م)، إبّان حكم الملك روچيه الثّانى الذى حكم الجزيرة بين عام ١٠٥٤-١٠٩٥م؛ وجيوم الثّانى (١١٥٤-١١٦١م) على وجه الخصوص[٤١]؛ شأن قصر عزيزة، وقصر القبّة، وكنيسة بلاتين. وهى جميعا معالم نورماندية، تبرز التّأثير الفنّى الحمّادى على مدينة پالرم فى أجلى صوره، لاسيما على مستوى العناصر الإنشائية، والعناصر الزّخرفية على وجه الخصوص.

هذا عن الْوِجْهَة الشّمالية الشّرقية التّى سلكتها المقرنسات الحمّادية، أمّا فيما يخصّ الوجهة الشّمالية الغربية فقد سلكت طريق البحر فى اتجاه الأندلس، حيث وصلت إلى هناك بعض التّأثيرات الفنّية من القلعة الحمّادية، مقرونة ببعض التّأثيرات القيروانية، المنطلقة بدورها من المغرب الأدنى (تونس). وقد شملت هناك كلّ من مدينة المريّة السّاحلية، ومدينة سرقسطة، إضافة إلى عاصمة الأندلس مدينة قرطبة، وذلك عبر مَسلكين بحريين، اُستحدثا وقتها للربط بين المدن السّاحلية الحمّادية، مثل مدينة عنّابة، وبجاية، ودلس، والجزائر العاصمة بنظريتها فى العدوة الأخرى. شأن ميناء دانية بجزر الباليار على سبيل المثال، لا التّخصّيص والحصر.

٣٨ P.M. Basilio, *El arte hispano-musulman en su décoration géométrique, une teoria para un estilo*, Institut hispano-arabe de culture, Madrid, 1975, p. 152.
H. Terrasse, *La mosquée*, p. 32.

٣٩ H. Derek and L. Golvin, Islamic Architecture in the North of Africa, Edited by Faber and Faber limited, London, 1976, p. 63.

٤٠ حول عمق العلاقات السّياسية، والاقتصادية التّى كانت تربط الحمّاديّين بجيرانهم النّورمانديّين فى صقلية، وجنوب إيطاليا أنظر:
إسماعيل العربى، دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

٤١ Ch. Feraud, «Histoire des villes de la province de Constantine: Sétif, Bordj Bou Arréridj, M'sila et Boussaâda», *Recueil de mémoires et de notices sur la société archéologique de la province de Constantine*, édition Constantine, Alger, Paris, 1871-1872 ; H. Saladin, «Rapport deuxième note sur les monuments arabes de la Qual'a des Beni Hammed», *BACT*, Imprimerie nationale, Paris, 1905, p. 185-198.
عفيف البهنسى، الفنّ الإسلامى، دار الأطلس للدّراسات، والتّرجمة، والنّشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص٢٧٤.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

ومن ثم فلا يُستبعد تأثّير المقرنسات الحمّادية على أقدم نموذج للمقرنسات الأندلسية، والمتمثّل فى الشّقفات الملتقطة من خرائب مدينة المريّة، والتّى كانت محلّ دراسة من طرف الباحث بوتش ڤيلا، منذ عقدين ونيف فى مقال: «المقرنسات فى فنّ الطّوائف بالمريّة»[٤٢]. ولعلّ ما يُعزّز مصداقية هذا الطّرح، هو العلاقات الوطيدة التّى كانت تربط الحمّاديّين بجيرانهم هناك، والقائمة على أساس الاحترام المتبادل، وعدم التّدخل فى شؤون الغير، وإلتزام الحيّاد المُطلق حيال فتنتهم الدّاخلية، وقَصْر تحرّكها على الجانب الإنسانى فحسب، كإيواء، وإسعاف الأندلسيّين، وأمرائهم الفارّين عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م من بطش المرابطين. أمثال الأمير معزّ الدّولة المعتصم بن صمادح، حاكم مدينة المرّية نفسها، وعليّ بن مجاهد العامرى، أعظم ربابنة الأسطول الإسلامى الأندلسى قبل انكسار شوكته، وكذا صاحب دانية. حيث اقتطع لهم الحمّاديون مُستعمرة صغيرة على أراضيهم بجوار ميناء دلّس، وأحوازه بشرق مدينة الجزائر العاصمة[٤٣]. زيادة على امتيازاتهم التّجارية السّابقة، المحفوظة لهم على مستوى ميناء عنّابة بأقصى الشّرق الجزائرى، وميناء بجاية بمنطقة القبائل الكبرى على وجه الخصوص (شكل ١).

فاستقرّ بموجب ذلك عنصر المقرنسات، وتغلغلت جذوره هناك حتى القرن السّابع عشر الميلادى تاريخ نقله إلى القارّة الأمريكية مع حملة الاستعمار الإسبانى على أمريكا اللاّتينية[٤٤]. ومنذ تلك اللّحظة بالذات عاد بذلك المقرنس الاسلامى شاملاً لمختلف قارّات العالم دون استثناء، وهى رحلة طويلة لم يبلغها عنصر زخرفى قديم مثله فى حدود إطلاعنا المتواضع.

وأمّا عن الوجهة الثّالث والأخيرة، فهى وجهة أفقية غربية تقريبًا، ضمّت الأراضى المرابطية فى المغرب الأقصى، مرورًا بمدينة تلمسان الحدودية التّى كان يطيلها النّفوذ السّياسى الحمّادى تارة، والنّفوذ السّياسى المرابطى تارة أخرى على مرّ عقود طويلة من الزّمن. حيث نشهد فيها أقدم نموذج لبقايا المقرنسات اليوم بمسجدها الجامع، الذى ابتناه المرابطون فى غضون القرن ٠٦هـ / ١٢م. وكذلك بجامع القروّيين بمدينة فاس، وقبّة البارودييين بمرّاكش. ولو أنّ التّأثير المعمارى الحمّادى على نظيره المرابطى لا يقتصر على عنصر المقرنسات فحسب، وإنّما سبقته تأثيرات فنّية، ومعمارية من قبل، ولا سيما فى مجال التّحصّين العسكري، كما تؤكّد ذلك بقايا العمائر العسكرية المرابطية، المشيّدة من طرف الأمير يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش. حيث تبدو تصاميمها، وأساليب تنفيذها مُحاكية لما هى عليه جارتها فى مبان القلعة، ومدينة المهدية الزّيرية بتونس، ولاسيما على مستوى مدخلها المركزى المزدان بحنية مجوّفة طويلة، كثيرة الشّبه بحنيات واجهة قصر المنار، وكذلك الواجهة الرّئيسية من مئذنة الجامع الأعظم بالقلعة دائمًا[٤٥].

[٤٢] J. Boschevilla, «Mocarbes on el arte de la taifa de el meria», *CHI* 8, Granada, 1977, p. 139-160.

[٤٣] شرقى الرزقى، «تطوّر المقرنسات»، ص ٩٠.

[٤٤] P. Fernandez, «Mukarnas», p. 500-501.

[٤٥] H. Terrasse, «L'art de l'Empire moravide, ses sources et ses origines», *StudIsl* XIII, Paris, 1955, p. 27-29.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

خاتمة

انطلاقًا من استعراض نماذج المقرنسات المتنوّعة، التّى عرفتها القلعة الحمّادية أيّام عزّها وازدهارها، والتّى تبدو للنّاظر، وكأنّها متحفا قائما بذاته لعرض المقرنسات الإسلامية، أو ورشة متخصّصة فى صنع المقرنسات بتصاميم متنوّعة ساحرة؛ وبالنّظر إلى طبيعة العلاقات الخارجية التّى كانت تربط الدّولة الحمّادية بدول الجوار، القائمة على مبدأ الاحترام المتبادل، ورعاية المصالح المشتركة، وعدم التّدخّل فى الشّؤون الدّاخلية للغير إلاّ فى حدود ما تسمح به الضّرورة الإنسانية، وما انجرّ عليها من تحقيق للأمن والسّلام والطّمأنينة لشعوب المنطقة، وتفعيل حركة الاحتكاك الثّقافى والتّبادل الحضاري، وبعث التّعاون الإقتصادى بينها وبين أقرانها الأقربين أفلا يحقّ لنا تعزيز ما تنبّأ به الباحث أولج جربار الآنف الذكر، والذى مفاده أنّ القلعة الحمّادية تشكّل بحق مركزا إقليميا لصناعة وترويج عنصر المقرنسات بالغرب الإسلامى على غرار مركز الشّرق الإيرانى؛ عِلْمًا أنّ هذا الباحث لمّا أصدر حكمه، لم يكن متوفّرا على ما هو متوفّر لدينا اليوم من المعطيات العلمية الواضحة.

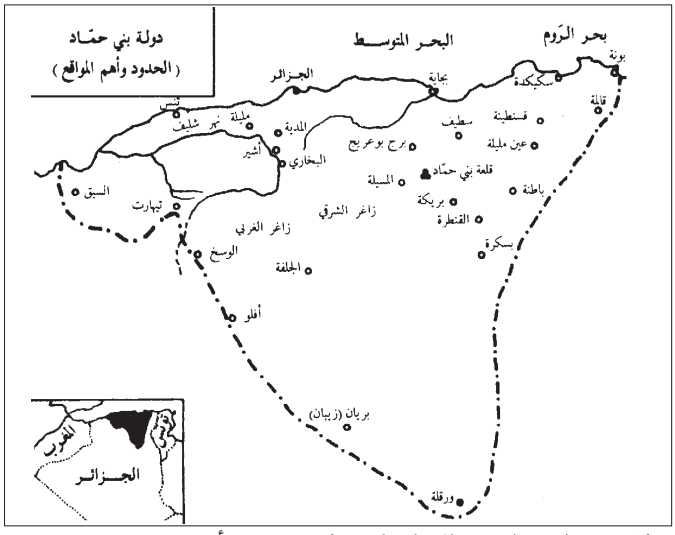

شكل ١. الحدود التقريبية للدولة الحمادية فى مستهل منشأها (نقلاً عن عويس عبد الحليم).

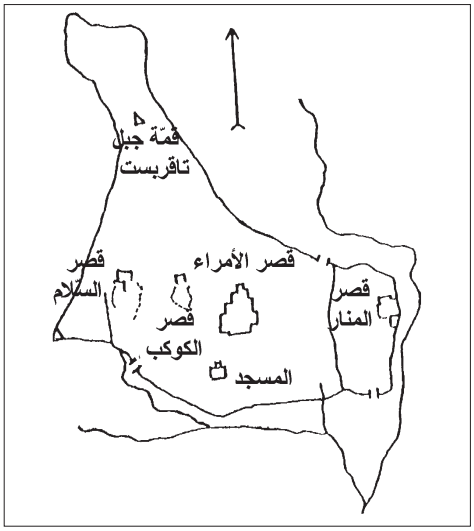

شكل ٢. المرافق العامة المكتشفة خلال أشغال السّبر والتنقيب الأثرى بمدينة القلعة الحمّادية (نقلاً عن لوسيان جولڤان).

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net

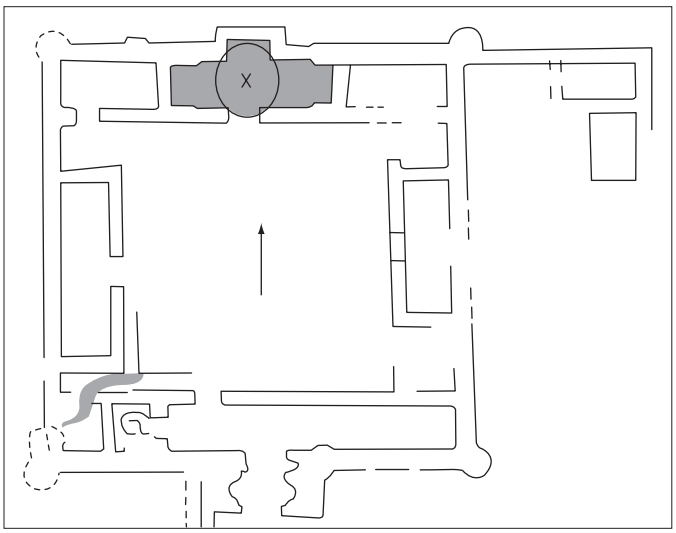

شكل ٣. موضع التقاط المقرنسات الحمّادية من قصر السلام عام ١٩٥٦م (نقلاً عن لوسيان جولڤان).

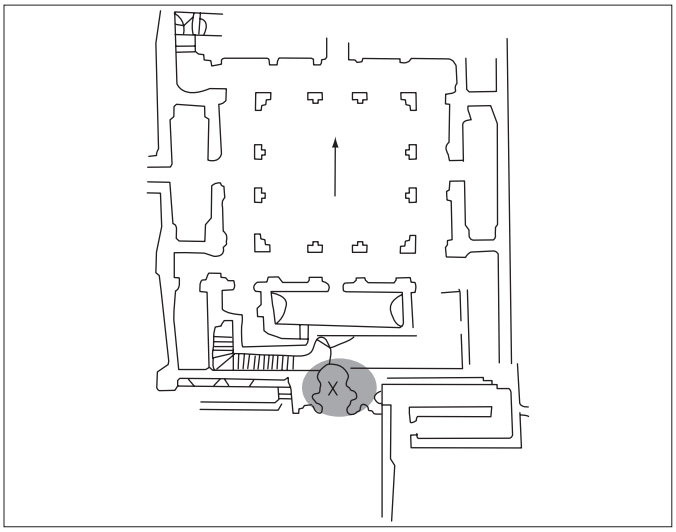

شكل ٤. موضع التقاط المقرنسات الحمّادية من قصر المنار عام ١٩٦٢م (نقلاً عن لوسيان جولڤان).

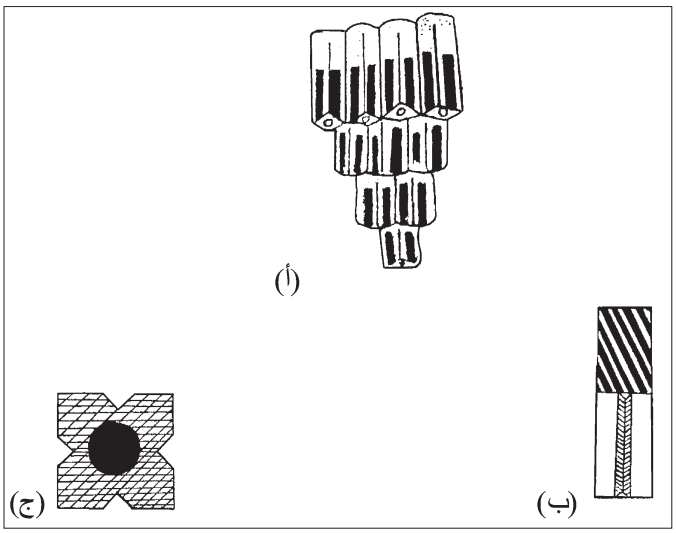

شكل ٥. الدليات المتوازية السطوح التى تم العثور عليها بالقلعة لأول مرة فى حفريات اللواء ليون دو بيلى عام ١٩٠٨م بقصر الأمراء قبل أن يتأكد تعميم استخدامها فى باقى معالم القلعة الأخرى على حد تأكيد الحفريات اللاحقة.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025

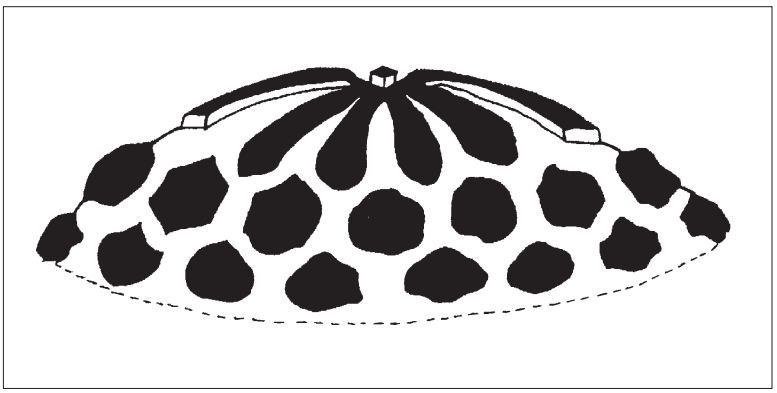

شكل ٦. تفريغ للنموذج الوحيد من المقرنسات الحجرية الحمادية الذى عثر عليه دوبيلى عام ١٩٠٨م بسفح قصر المنار المطل على وادى فرج (نقلاً عن چورچ مارسيه) .

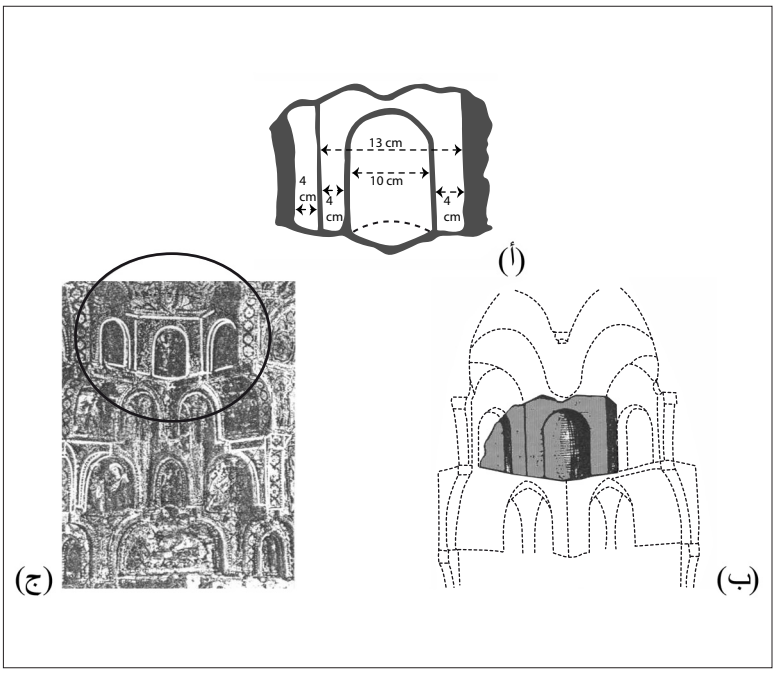

شكل ٧. قطعة أولى من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولڤان فى محاولة لتصور موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة فى كنيسة بلاتين النورماندية بمدينة پالرم.

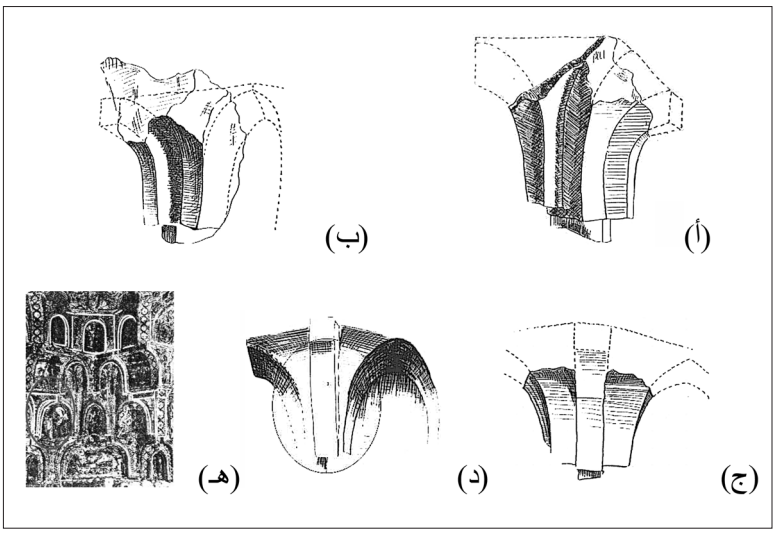

شكل ٨. قطعة ثانية من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولڤان فى محاولة لتصور موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة فى كنيسة بلاتين النورماندية بمدينة پالرم.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025

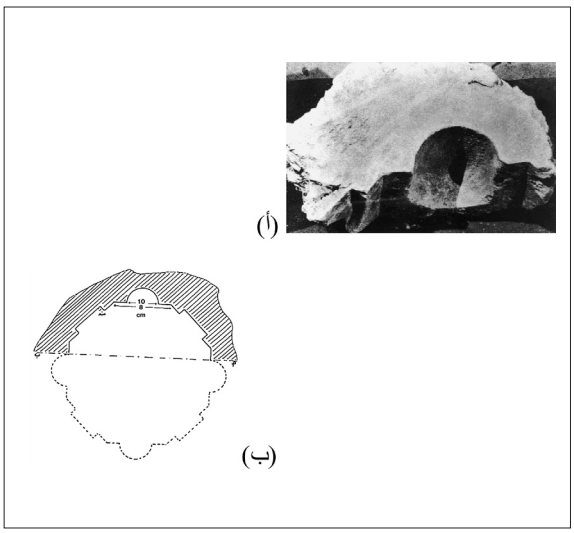

شكل ٩.

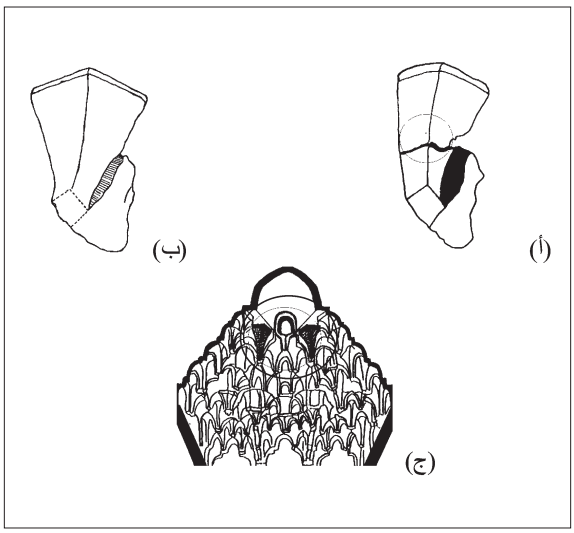

شكل ١٠.

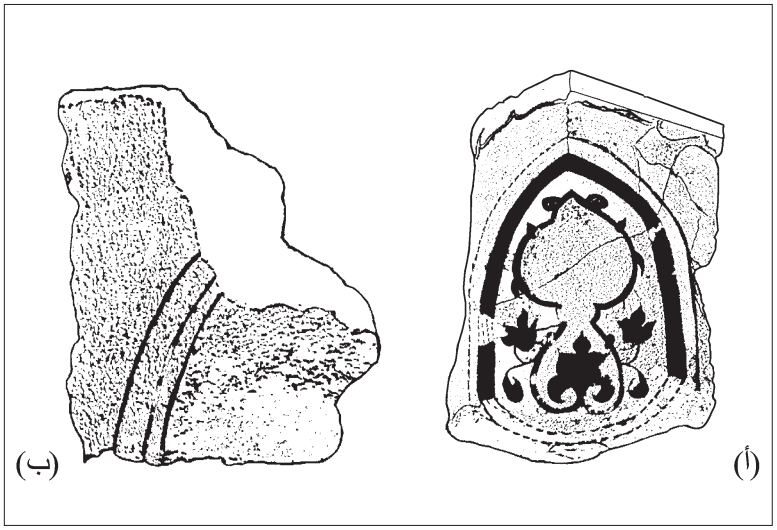

شكل ١١.

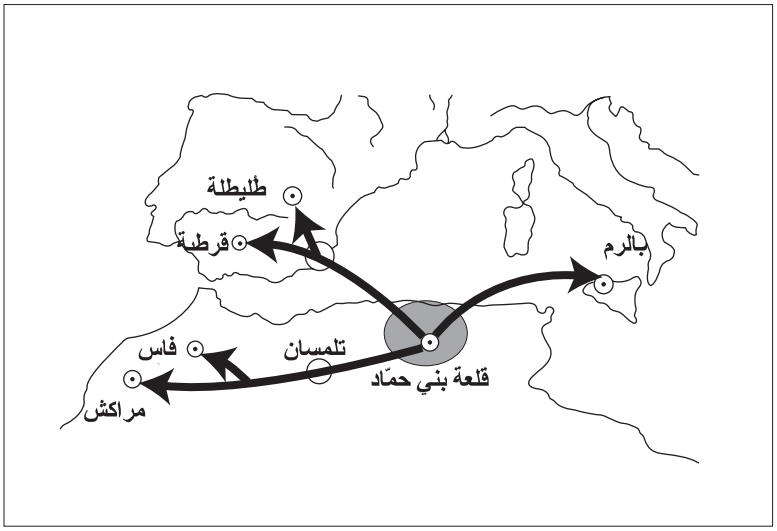

شكل ١٢.

شكل ٩. قطعة ثالثة من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولڤان تؤكد بوضوح أنها كانت تشغل قطب القبة المقرنسة وهو ما يعرف لدى الحرفيين المغاربة اليوم بالشاشية.

شكل ١٠. قطعة رابعة من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولڤان فى محاولة لتصور موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة فى قصر عزيزة النورماندى بمدينة پالرم.

شكل ١١. تفريغ للقطعتين المقرنستين المكتشفتين بالمدخل الجنوبى من قصر المنار عام ١٩٦٢م من طرف لوسيان جولڤان والمعروضتين حالياً بإحدى وجهات قاعة قلعة بنى حماد بمتحف سيرتا بمدينة قسنطينة.

شكل ١٢. خريطة تقريبية توضح مسار توجه المقرنسات الحمادية بمنطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين ٥-٦هـ/ ١١-١٢م.

AnIsl 40 (2006), p. 139-153 Šarqī Al-Rizqī
المقرنسات الحمّادية وَوجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسّط. -al intišārihā wighāt wa ḥammādiyya-al muqarnasāt-Al muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.
© IFAO 2025 AnIsl en ligne https://www.ifao.egnet.net